قصص الأنبياء : النصيّة والأدبية

أ . د . محمد كريم الكواز*

مقدمة

قصص الأنبياء نوع من السرد العربي ، تختلف عن القصص القرآنية ، باندماجها بالإبداع الإنساني الأدبي ، اغترفت من الموروث الديني لأمم قديمة ما وظفته لخدمة العقيدة الإسلامية ، تخصصت بكتابة مستقلة في « قصص الأنبياء للثعلبي » و« قصص لابن كثير » و« قصص الأنبياء للكسائي » ، كما احتلت حيزاً واضحاً في « العظمة لأبي الشيخ » وفي « تفسير الطبري » وغيره ، تمت مقاربتها هنا بوصفها سرداً أدبياً ذا مرجعية دينية .[1]

نصية القصص

قرَن بروكلمان بين ثلاثة مؤلفين ، عاشوا في القرن الخامس الهجري ، وكتبوا (قصص الأنبياء) ، أبي الحسن محمد بن عبد الله الكسائي ، في بداية القرن ، وأبي إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي (ت 427 هـ) ، وأبي عبد الله محمد بن أحمد بن مطرِّف الكناني (ت 454 هـ) .[2]

ليس للأول (الكسائي) ذكر مفصَّل في كتب التراجم ، إلا اسمه ، وكتابه موجود ، وللثاني (الثعلبي) ترجمة وافية ، وكتابه موجود ، وللثالث (ابن مطرِّف الكناني) ترجمة وافية ، وكتابه مفقود ، الكتّاب الثلاثة مقترنون عند بروكلمان من خلال إسهامهم في كتابة قصص الأنبياء ، ولكنهم مختلفون ، فالأول موجود بكتابه ، والثاني موجود هو وكتابه ، والثالث

---

* الجامعة الأسمرية ، ليبيا .

(1) البحث جزء من كتاب « مملكة الباري ، السرد في قصص الأنبياء» معد للطبع .

(2) تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ، ترجمة السيد بكر ، ود . رمضان عبد التواب ، الهيئة المصرية للكتاب ، مصر 1993 ج6 ص151 ـ 154 .

موجود اسمه فحسب .

ما يجمعهم على اختلافٍ هو (الكتابة) في قصص الأنبياء ، لذا أدخلهم بروكلمان في (تاريخ الأدب العربي) ، والأدب كما قدّم ، « ما صاغه الإنسان في قالب لغوي ليوصله إلى الذاكرة » . أي أن الأدب كتابة إنسان ضمن ثقافة معينة ، يشترك في ذاكرتها ، فيتجه « إلى دائرة أوسع من السمّاع والقرّاء ، ليؤثر في مشاعرهم ، أو يزيد من معارفهم » ،[1] دلالة الأدب هذه اتخذت عند سزكين الذي عمل على تطوير كتاب بروكلمان ، مفهوماً آخر هو التراث ، فكان عنوان كتابه (تاريخ التراث العربي) ، صار الأدب هو التراث ، ولا غرابة ، ذلك أن دلالة الأدب عند بروكلمان لا تعني كونه فناً من الفنون ، كما هي في الدراسات الحديثة . يبدو ظاهرياً ، أننا فسّرنا الماء بالماء ، حين انتهينا إلى أن الأدب هو التراث ، ولكننا نحاول الوصول إلى نصيّة قصص الأنبياء .

لكي يكون كلام ما نصاً معترفاً به في أية ثقافة ، لا سيما العربية ، هناك مجموعة مواصفات ، ينبغي توافرها فيه ، سنحاول استنطاقها من خلال قصص الأنبياء ، هذه الظاهرة التي بدأت بكتاب وهب بن منبه وما زالت ، وسوف نركّز على كتاب الثعلبي ، الكتاب الذي وصل إلينا ، ومؤلفه معروف مشهور:

1ـ تلقّى العلماء كتاب الثعلبي بالقبول ، بل بالاحترام ، فهو « الإمام الحافظ العلامة ، شيخ التفسير . . . أحد أوعية العلم ، له كتاب التفسير الكبير ، وكتاب العرائس في قصص الأنبياء »،[2] وهو « المفسر المشهور كان أوحد زمانه في علم التفسير ، وصنف التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير ، وله كتاب العرائس في قصص الأنبياء »،[3] وهو « المقرئ المفسر ، الواعظ الأديب ، الثقة الحافظ ، صاحب التصانيف الجليلة ، من التفسير الحاوي أنواع الفرائد ، من المعاني والإشارات ، وكلمات أرباب الحقائق ، ووجوه الإعراب والقراءات ، ثم كتاب العرائس والقصص

(1) السابق ج1 ص3 .
(2) سير أعلام النبلاء ، الذهبي(محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز) تحقيق شعيب الأرناؤوط ، محمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط9 1413هـ . ج17 ص435 . موقع يعسوب .
(3) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ابن خلكان ، (أحمد بن محمد بن أبي بكر) ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت 1994 . ج1 ص79 . موقع الوراق .

(العرائس في قصص الأنبياء) ، وغير ذلك ، مما لا يحتاج إلى ذكره لشهرته» .[1]

يمكن أن نزيل طبقة المبالغة في هذه الأقوال ، فيبقى التأكيد على أهمية كتب الثعلبي ، على أنها أضافت جديداً في بناء الثقافة العربية الإسلامية ، وأنها صفحة من تراثها ، كانت في زمنها ، مشهورة متداولة ، لا يحتاج من يذكرها إلى تعب وعناء في التعريف بها .

يتلازم الكتابان في أنهما يندرجان في تفسير القرآن الكريم ، ويؤديان مهمة واحدة ، فعنوان التفسير «الكشف والبيان في تفسير القرآن» ، وعنوان القصص «العرائس في قصص الأنبياء» ، وقد جاء في أوله: «هذا كتاب يشتمل على قصص الأنبياء المذكورة في القرآن بالشرح والبيان» ،[2] لكن الاختلاف بينهما أن التفسير (كشف) والقصص (شرح) . والكشف يعني إزالة شيء عن شيء ، فالتفسير إزالة الغموض عن المعنى ، المعنى هنا موجود أصلاً ، أما الشرح فيعني قطع الشيء عن الشيء ، «قطع اللحم عن العضو قطعاً» (ابن منظور: شرح) ، فشرح الثعلبي للقصص في القرآن الكريم هو قطعها عنه ، وتقديمها مستقلة ، وبناؤها بناء جديداً ، فيه موضوعات إضافية ، مشاهد وتفاصيل تقتضيها القصص .

قصص الأنبياء تدخل إذن في الثقافة العربية الإسلامية ، بوصفها نصوصاً مقبولة ، شغلت حيّزاً واضحاً ، واندمجت في البناء الثقافي .[3]

2ـ وما دام النص له مدلول ثقافي ، فإنه يُحتفظ به ويُخشى عليه من الضياع ، فهو لهذا السبب يُدَّون ، ويحصر بين دفتي كتاب ،[4] ولم يقتصر التدوين على كتاب الثعلبي ، فقد نشأت قصص الأنبياء نشأةً كتابية منذ مرحلة تأسيسها ، فتدسَّست في الثقافة وهي مدوَّنة ، كعب الأحبار (ت 32 هـ) ، كان يحدِّث عن كتاب[5] ، ولوهب بن منبه كتاب «قصص

(1) معجم البلدان ، ياقوت الحموي(شهاب الدين عبد ربه الحموي) ، دار صادر ، بيروت 1375هـ ، 1956م . ج1 ص194 . موقع الوراق .
(2) قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ، الثعلبي(أحمد بن محمد النيسابوري) ، المكتبة الثقافية ، بيروت(د . ت) . ص2 .
(3) الأدب والغرابة ، دراسات بنيوية في الأدب العربي ، عبد الفتاح كيليطو ، دار توبقال ، المغرب ، ط4 2007 . ص16 .
(4) نفسه ص18 .
(5) قصص الأنبياء ، الثعلبي ص21 .

الأنبياء»،[1] والقسم الأول من سيرة ابن إسحاق في قصص الأنبياء،[2] فضلاً عن دخول قصص الأنبياء في التفاسير، وتفسير الطبري مثل واضح.

قصص الأنبياء تتميَّز من حيث تدوينها من نصوص التراث، هي ترتبط بتسطير المقدَّس، فتقع على العلاقة بين فعل (التسطير) ودلالة (التقديس)، وفي فضاء الثقافة الإسلامية يظهر التسطير بأمر إلهي، حين يأمر الله تعالى القلم بكتابة الوجود على لوح من درّة بيضاء، دفتاه من ياقوتة حمراء، عرضه كما بين السماء والأرض، ونتبين من تاريخ نزول القرآن، أن الكافرين، سمّوا القرآن الكريم (أساطير الأولين)، وهم يريدون بها قصص الأنبياء السالفين، وقصص الأمم القديمة، وقصة الخلق.[3]

3ـ لا تسعفنا تراجم المؤلفين بمعلومات مفصَّلة عن أنشطتهم الثقافية، وكثيراً ما تضنُّ بها، ربما لتعارف الناس عليها، كأن يكون مؤلِّف ما معلِّماً، يلقي دروسه على تلاميذ، ولكن يمكن استنتاج ذلك من بعض الإشارات، فأن يكون الثعلبي «أحد أوعية العلم»،[4] معناه إقبال التلاميذ عليه للتلمذة، أو قراءة كتبه، والأخذ منها، في الحالتين تصبح كتابة الثعلبي نصوصاً، يُستشهد بها، وينسج على منوالها.[5]

قصص الأنبياء لوهب بن منبه، نقل عنها الطبري (ت 310 هـ)، وقد وصلت إليه عن طريق محمد بن حميد الرازي عن سلمة بن الفضل الأبرش عن محمد بن إسحاق عن وهب، كان محمد بن حميد الرازي (ت 248 هـ) معلِّماً، وصفه الطبري، قال: كنا نكتب عند محمد بن حميد الرازي، فيخرج إلينا في الليل مرّات، ويسألنا عما كتبناه، ويقرؤه علينا،[6] كان المعلِّم يحرص على حسن تعلُّم التلاميذ، فيخرج إليهم ليلاً للمراجعة.

لم تكن كل قصص الأنبياء تُعلَّم مباشرة، هناك طريقة أخرى، هي الوجادة: «أخذ من العلم من صحيفة، من غير سماع، ولا إجازة، ولا

(1) تاريخ الأدب العربي ج1 ص252.
(2) هو كتاب «المبتدأ في قصص الأنبياء» الذي قمنا بجمعه وتوثيق نصوصه.
(3) من أساطير الأولين إلى قصص الأنبياء، محمد كريم الكواز، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت 2006. ص19.
(4) سير أعلام النبلاء ج17 ص436.
(5) الأدب والغرابة ص18.
(6) معجم الأدباء ج2 ص364.

مناولة » ،[1] فإذا كانت قصص الأنبياء مكتوبة أصلاً ، فإننا نستطيع ذكر سلسلة الرواة ، على أنهم تلاميذ: الطبري (ت 310 هـ) عن محمد بن سهل بن عسكر (ت 251 هـ) عن إسماعيل بن عبد الكريم (ت 210 هـ) عن عبد الصمد بن معقل (ت 183 هـ) أنه سمع وهباً ، يقول .[2] الرواة تلاميذ يأخذون العلم عن الشيخ من خلال كتابه ، ثم إن كلاً منهم يقوم بدور الشيخ ، عندما يأخذ عنه الراوي اللاحق .

4ـ النص كذلك ، تجب نسبته إلى مؤلف معترف بقيمته ، أي مؤلف يجوز أن تصدر عنه نصوص ، المؤلف الحجَّة هو الذي أخذ عن شيوخ حفّاظ ، وخزنة للنصوص ، ثم أجازوه بتبليغ النصوص ،[3] والثعلبي ، مثَّل هذا الدور أحسن تمثيل ، فهو « الامام الحافظ العلامة ، شيخ التفسير . . . أحد أوعية العلم » ، ثم هو « صحيح النقل موثوق به ، حدث عن . . . وكان كثير الحديث ، كثير الشيوخ .[4]

هناك وجه آخر للثعلبي ، فبينما هو إمام حافظ ، كثير الحديث ، كثير الشيوخ ، هو أيضاً « كثير الحديث ، كثير السماع ، ولهذا يوجد في كتبه من الغرائب شيء كثير » ،[5] الكثرة المحمودة أصبحت سبباً في توهينه ، بعد أن كانت سبباً في حجِّيته وأستاذيته ، كثرة العلم ، سبّبت كثرة الغرائب ، فلو كان قليل العلم ، أيكون قليل الغرائب ، لا مطعن فيه؟ .

للمسالة وجه آخر ، الغرائب هي الأحاديث النبوية التي يتفرَّد بروايتها بعض الرواة ، أو الأحاديث التي يتفرَّد فيها بعض الرواة بأمر ، لا يذكره فيها غيره ، في المتن ، أو في السند ،[6] وليس في هذا بأس ، إذا علمنا أن المحدِّثين أحاطوا بدراسة الحديث الغريب ، ونقّبوا عن غرائبه ، وأحصوها وحصروها .

(1) مقدمة ابن الصلاح ، معرفة أنواع علم الحديث ابن الصلاح(عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري) . ج1 ص37 . موقع الوراق .
(2) تفسير الطبري ، جامع البيان في تأويل آي القرآن ، الطبري(محمد بن جرير) ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ط1 2000 . ج1 ص6 . موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف .
(3) الأدب والغرابة ص19 .
(4) وفيات الأعيان ج1 ص70 .
(5) البداية والنهاية ، ابن كثير(إسماعيل بن عمر بن كثير) مكتبة المعارف ، بيروت(د . ت) . ج12 ص40 . المكتبة الشاملة .
(6) مقدمة ابن الصلاح ج1 ص60 .

إذا تعمَّقنا في مفهوم الحديث الغريب ، نجد فجوة يستطيع الراوي أن يستغلها ، فيضيف أشياء لم تكن في الأصل ، لا سيما في المتن ، لغاية في نفسه ، للتكسُّب بالغرائب المضافة مثلاً ، وهذا ما يفعله القصّاص ، « وتلك الأحاديث إنما يسمعها العوام من القصّاص ، يُطرفونهم بها ، ويتوصلون إلى نيل ما في أيديهم برواياتها » .(1)

لا نعرف عن الثعلبي أو غيره من مؤلفي قصص الأنبياء أنه يتكسَّب من العوام بروايته القصص في المساجد أو الطرقات العامة ، هذه حال غيرهم من قصّاص العامة ، ممن خصَّص لهم ابن الجوزي « كتاب القصّاص والمذكِّرين » ، هو من قصّاص الخواص ، فلماذا إذن جاء بالغرائب؟ . لا يهمنا الجواب الآن ، إنما نريد التأكيد على أنه قاصّ .

إذا أمكن التعامل مع قصص الأنبياء بوصفها نصوصاً ثقافية ، وقد قدَّمنا حججنا على ذلك ، فإننا سنخطو خطوة أخرى ، باتجاه تعميق فهمنا المعاصر لظاهرة « قصص الأنبياء » ، سنحاول مقاربتها من حيث كونها قصصاً ، وهذا ما ختمنا به وصف الثعلبي بأنه قاص .

أدبية القصص

مرة أخرى ، ليست أخيرة ، نقف عند دلالة « الأدب » ، حيث وقف كثير من الباحثين ، وانتهوا إلى أن للأدب دلالات مختلفة ، تنبع من سياقات زمنية وثقافية مختلفة ، فكانت دلالة الأدب على التهذيب والخُلق في صدر الإسلام ، كقول الرسول الكريم: (أدّبني ربي ، فأحسن تأديبي) . وفي العصر الأموي على التعليم ، ومنها « المؤدِّبون » الذين كانوا يلقّنون أولاد الخلفاء الشعر والخطَب ، وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام . وفي العصر العباسي على التهذيب والتعليم معاً ، كما في كتابي ابن المقفع « الأدب الكبير » و« الأدب الصغير » . وكانت الدلالة عند أخوان الصفاء ، في القرن الرابع الهجري ، على كل المعارف غير الدينية ، التي ترقى بالإنسان اجتماعياً وثقافياً . وعند ابن خلدون ، في القرن التاسع الهجري ، على جميع المعارف الدينية وغير الدينية . وتأثراً بالثقافة الأجنبية ، اتخذت منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، معنى يضمّ كل ما ينتجه العقل ،

(1) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، الخطيب البغدادي(أحمد بن علي) . ج2 ص167 . موقع السنة .

في مقابل الكلام الإنشائي البليغ الذي يُقصد به التأثير في عواطف القرّاء والسامعين .

وما انتهوا إليه من دلالات يبتعد ، أحياناً كثيرة ، عن ماهية الأدب ، حين تُوظف في سياق أدبي ، يراد منه تفعيل الطاقة الفنية فيه ، ولعلنا نلمح هذه الدلالة منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، بمعنى أن الاستخدامات القديمة لمصطلح الأدب لا تبرز الجانب الفني منه ، بقدر إبراز الجانب النفعي ، فالتأديب الخُلقي وأخبار العرب وأنسابهم ، أو كل المعارف الدينية وغير الدينية ، تقوم على الوظيفة الإبلاغية التواصلية للغة ، ويمكن لأي مستوى لغوي تأديتها ، ما دامت اللغة أصواتاً ، يعبّر بها كل قوم عما يريدون التعبير عنه .(1)

وهذا شيء طبيعي ، فالسياقات المتعددة تنتج دلالات مختلفة ، ولكن ما علاقة قصص الأنبياء بكل هذا ، وهي نصوص اعترفت بها الثقافة العربية الإسلامية؟ .

سنقع في منزلق إسقاط المفاهيم الحديثة على التراث ، إذا قلنا إنها: قصص . ونعني انتماؤها إلى الفن الأدبي الذي يقوم على اللغة ، كما يقوم الرسم على اللون ، والموسيقى على اللحن ، من الخطأ ، وفق هذا المفهوم ، أن نقول: إنها من الأدب الذي هو واحد من الفنون السبعة المعروفة في عصرنا (الرسم والموسيقى والنحت والسينما . . .) ، علينا الرجوع إلى التراث ، وقراءة دلالة قصص الأنبياء في تاريخيتها ، وتثبيت تلك الدلالة في مدلولها .

مفارقة عجيبة بين موقف القرآن الكريم المبدئي من جنس الشعر ومن جنس القصة ، والممارسة العملية لكل منهما ، لم يكن الشعر محترماً في القرآن الكريم ، فهو مما لا ينبغي للنبي صلى الله عليه وسلم الاتصاف به ، (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ) (سورة يّس: من الآية 69) ، الشعر دون رفعة النبوة ، هو محتقر لا يليق بمهابة النبي ، وعلى هذا يجب على المسلمين الذين يتخذون الرسول أسوة لهم أن يمتنعوا عن الشعر ، أن يتركوه ، على الرغم من سريان الشعر في دماء العرب ، ولكن الواقع

(1) علم الأدب العربي ، دلالة الماهية وكتب الأصول ، محمد كريم الكواز ، مجلة فضاءات ، العدد4 سنة 2003 ، دار الأصالة والمعاصرة ، طرابلس ، ليبيا . ص48 .

التاريخي بخلاف ذلك ، إذ استمر الشعر وقوله بعد الإسلام ، كما كان قبله ، حتى قيل: « لا تدع العربُ الشعرَ حتى تدع الإبلُ الحنين » .[1]

الطرف الآخر من المفارقة ، في القرآن الكريم يصف الله تعالى نفسه بأنه يقص: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) (سورة يوسف: من الآية3) ، (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ) (سورة الكهف: من الآية 13) ، كما يأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالقصّ: (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ) (سورة الأعراف: من الآية 176) ، ولكن الواقع التاريخي أيضاً بخلاف ذلك ، إذ لم يمتثل المسلمون لذلك ، بل منعوا القصّ في أحيان كثيرة ، فهزلت القصة ، ضعفت في الثقافة ضعفاً بارزاً وقلّت ، بمقارنتها بقوة الشعر وكثرته .

الحاصل من طرفي المفارقة احتلال الشعر مساحة الثقافة ، فهو « ديوان العرب » ، وبقاء القصة في طرف من الثقافة على استحياء ، والحاصل أيضاً أن الشعر هو الأدب ، أو « أعلى مراتب الأدب » ،[2] وخروج القصة منه على مضض ، ولا نستغرب من باحث معاصر قوله: « إن القصة لدى العرب ، لم تكن من جوهر الأدب ، كالشعر والخطابة والرسائل مثلاً ،[3] وهذه نتيجة لمقدِّمات ، يجب البحث فيها ، وفحصها في تاريخيتها ، لكشف المقدِّمات التي أودت بنشاط القصّ ، إلى الانكماش والابتعاد عن دائرة الضوء .

ظهرت قصص الأنبياء والأمم الماضية ، في المرحلة المكيّة من نزول القرآن ، كان القرآن الكريم يشير إلى ما لحق الناس من ثوابٍ؛ لإيمانهم بما جاءت به الرسل ، ومن عقاب؛ لصدودهم عنهم ، وذلك ضمن آلية الترغيب والترهيب التي اتبعتها الدعوة الإسلامية ، في المرحلة المكيّة هذه ، ظهر من يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم أذى خاصاً ، يختلف عن الأذى الجسدي ، أذى يهدّد منزلة النبوة ، في أدقّ كيانها ، كان النضر بن الحارث يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم بأن يخلفه في مجلسه ، ويحدِّث الناس بأحاديث رستم وأسفنديار .[4]

(1) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ابن رشيق(أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني) . ج1 ص4 . موقع الوراق .
(2) نفسه ج1 ص4 .
(3) الأدب المقارن ، د . محمد غنيمي هلال ، نهضة مصر ، القاهرة 1997 . ص491 .
(4) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج1 ص358 موقع الإسلام .

كان النضر بن الحارث يزاحم محمداً صلى الله عليه وسلم في النبوة ، يجلس مجلسه ويتحدث كما كان الرسول الكريم يتحدث ، ويورد أخبار الأولين ، ظناً منه أن النبوة تحديث (أو قصّ) بالأحاديث القديمة ، بل كان يفسر الوحي بالأخذ عن الكتب القديمة التي كانت عند العبّاد في بلاد فارس ،[1] كان يريد نسبة المعلومات التي يأتي بها محمد صلى الله عليه وسلم إلى الأخبار المسطورة في الكتب ، فتتقوض ركيزة النبوة واستمدادها من الله .[2]

النضر بن الحارث يقصّ ، ويبدو أن له تأثيراً بالغاً في الناس ، حتى عُدَّ « من شياطين قريش » ،[3] وشخصيّة الشيطان تحيل على عالم الغيب الذي لا يحقّ له مقاربته ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله .

قتل النضر يعني قتل القصّ إذا كان من غير القرآن الكريم ، من البشر ، أما القصّ القرآني الصادر من الله ، فهو (أَحْسَنَ الْقَصَصِ) (سورة يوسف: من الآية 3) ، ولا يستطيع الإنسان الإتيان بمثله ، القصّ الإنساني إذا عارض نشر الدعوة ، القضية المركزية للرسول الكريم ، كما فعل النضر ، فهو ممنوع ، أما إذا كان يسير في اتجاه الدعوة ، يندرج في الخطاب الإسلامي الذي يعمل الرسول على تبليغه الناس ، فهو مسموح به ، وهذا ما تهيَّأ لتميم الداري .

كان تميم الداري (ت 40 هـ) قد حدَّث رسول الله صلى الله عليه وسلم بقصة الجسّاسة ، فرواها الرسول عنه ، وهو ينصُّ على روايتها عنه ، قال الرسول الكريم: (حدّثني حديثاً وافق الذي كنت أحدِّثكم عن مسيح الدجّال ، حدَّثني أنه ركب في سفينة بحريّة مع ثلاثين رجلاً . . .) ،[4] قصة الجسّاسة توافق ما سبق أن حدَّث الرسول الكريم به ، فرواها عن تميم الداري ، مضمون القصة موظَّف في اتجاه دعوة الرسول ، ربما كانت هناك

(1) تفسير الطبري ، جامع البيان في تأويل آي القرآن ، الطبري(محمد بن جرير) ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ط1 2000 . ج13ص503 . موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف .

(2) من أساطير الأولين ص10 .

(3) تفسير الرازي ، المشهور بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب ، (محمد بن عمر بن الحسن) . ج10 ص161 موقع التفسير .

(4) صحيح مسلم ، الجامع الصحيح ، (مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري) ، دار الجيل ، بيروت . ج8 ص203 . موقع وزارة الأوقاف المصرية .

قصص أخرى ، باتجاه آخر ، لم يروها الرسول ، بل ربما أمر بوأدها ، إذا كانت تتخذ جهة المعارضة .

في قصة الجسّاسة يتحول الرسول الكريم من موقف الذي يبلّغ الرسالة عن الوحي ، عن الله تعالى إلى راوية عن تميم الداري ، عن بشر ، وفي أحاديث النضر يأمر الرسول الكريم بقتل القاصّ ، وفي الحالين يتبيّن خطر القص .

في مرحلة التأسيس ، عصر النبوة ، كان القصّ خطراً ، مرة أخرى هو القصّ الإنساني ، لا القصّ القرآني ، وانتهى عصر النبوة بموقف متشدّد من القص ، ينذر المسلمين فيه من خطر القصّ ، مستشهداً ببني إسرائيل ، (لمّا هلكوا قصّوا) ،[1] أو (لمّا قصّوا هلكوا) ،[2] وفي الروايتين يتساوى الهلاك والقصّ ، كل منهما مفضٍ إلى الآخر .

من هنا كان نهي الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا يقصّ على الناس إلا أمير ، أو مأمور ، أو مراء) ،[3] وفي رواية أخرى: (أو مختال) ،[4] وقد تحدّد فيه ثلاثة تعريفات للقاصّ ، لا يجوز اختراقها ، بعد عصر النبوة:

الأمير: لم نجد «أمير المؤمنين» ، وهو الحاكم في كل مراحل التاريخ الإسلامي ، قاصاً ، ربما كان شاعراً ، ابن المعتز مثلاً ، أو كان خطيباً ، وغالبيتهم يخطبون ، دفاعاً عن ممالكهم ، أما أن يكون قاصاً ، فهذا لم يحدث أبداً ، خلط ابن الجوزي بين القصص والتذكير والوعظ ، فذهب إلى أن «الأمراء يتولون الخُطَب ، فيعظون الناس ، ويذكّرونهم» .[5]

المأمور: الأمير يتَّخذ قاصّاً ، فالقاصّ هنا مأمور ، ينطلق من توجيهات الأمير ، ويأتمر بها ، «المأمور من يقيمه الإمام خطيباً» ،[6] ويمثّل تميم الداري أول أنموذج له ، فقد استأذن أميرَ المؤمنين عمرَ بن الخطاب ، عدة مرات ، فأذن له آخر ولايته ، واستعمل معاوية بن أبي

---

(1) المعجم الكبير ، الطبراني(سليمان بن أحمد) ج4 ص80 . موقع ملتقى أهل الحديث .

(2) المستطرف في كل فن مستظرف ، الأبشيهي(محمد بن أحمد بن منصور) . ج1ص152 . موقع الوراق .

(3) المعجم الصغير ، الطبراني(سليمان بن أحمد) . ج2 ص206 موقع السنة .

(4) مسند الشاميين ، الطبراني(سليمان بن أحمد) ج6 ص71 . موقع السنة .

(5) القصّاص والمذكرين ، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي(ت 597هـ) تحقيق سوارتز ، دار المشرق ، بيروت 1971 . ص29 .

(6) نفسه ص29 .

سفيان ، في حربه مع علي بن أبي طالب ، قاصّاً ، يقص بعد الصبح وبعد المغرب ،[1] وشكا عبد الملك بن مروان ما انتشر عليه من أمور رعيته ، وتخوِّفه من كل وجه ، واستعان بالقصّاص .[2] والأمثلة كثيرة كثرة الاضطرابات التي مرّت بها السلطة السياسية على طول التاريخ ، ومن هنا اقترنت القصص بالفتنة .

المرائي أو المختال: « المرائي من يُرَائي الناس بقوله وعمله ، لا يكون وعْظه وكلامه حقيقة ، والمختال المتكبِّر المعجَب بنفسه المزهو بها » ، هاتان دلالتان تفسّران التعريف الثالث للقاصّ ، وجدناهما في حواشي المصادر ، هما تعبّران عن القاصّ برسم معالم سلبية ، خارجة عن الصراط الذي أخطّه الأمير (الحاكم) ، القاصّ هو الذي يظهر للناس غير ما يفعل ، يجاري الناس كذباً ، فلا يكون كلامه معبراً عن حقيقة ، وهو معجَب بكلامه ، بقصصه ، مزهواً بها ، يتباهى بها على غيره ، فما دام هذا القاصّ لا يصدر عن أوامر الخليفة ، فهو مختال ومتكبّر ، ومن المستبعد أن يقصّ القاص طلباً للرئاسة ، كما ذهب ابن الجوزي .[3]

من جانب آخر ، هو القاصّ الذي يعبّر عن نفسه ، فهو صادق مع نفسه ، كاذب مع الخليفة ، هو يصدر عن رؤياه ، لا عن رؤيا الخليفة ، مستخدماً قدرته الفنية وخياله لإنشاء نص سردي ، والقاصّ حرّ في إقامة عالم القصّ (السرد القصصي) ، له أن يتخيّل مواقف ومحاورات ، وله أن يصف مشاعر شخصيّاته ، وله أن يستمدّ من التاريخ أو الواقع ، ليقيم عالماً جديداً ، يتجاوز ما استمدّ ويفارقه ، ومن هنا سوف تظهر شخصية القاصّ في آفاق التراث .

(1) آثار البلاد وأخبار العباد ، القزويني(زكريا بن محمد بن محمود) . ج2 ص462 . موقع الوراق .
(2) نفسه ج2 ص463 .
(3) القصاص والمذكّرين ص29 .

مراجع البحث :

1ـ آثار البلاد وأخبار العباد ، القزويني(زكريا بن محمد بن محمود) . موقع الوراق .
2ـ الأدب المقارن ، د . محمد غنيمي هلال ، نهضة مصر ، القاهرة 1997 .
3ـ الأدب والغرابة ، دراسات بنيوية في الأدب العربي ، عبد الفتاح كيليطو ، دار توبقال ، المغرب ، ط4 2007 .
4ـ البحث جزء من كتاب «مملكة الباري ، السرد في قصص الأنبياء» معد للطبع .
5ـ البداية والنهاية ، ابن كثير(إسماعيل بن عمر بن كثير) مكتبة المعارف ، بيروت(د . ت) . المكتبة الشاملة .
6ـ تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ، ترجمة السيد بكر ، ود . رمضان عبد التواب ، الهيئة المصرية للكتاب ، مصر 1993.
7ـ تفسير الرازي ، المشهور بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب ، (محمد بن عمر بن الحسن) . موقع التفسير .
8ـ تفسير الطبري ، جامع البيان في تأويل آي القرآن ، الطبري(محمد بن جرير) ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ط1 2000 . موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف .
9ـ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، الخطيب البغدادي(أحمد بن علي) . موقع السنة .
10ـ سير أعلام النبلاء ، الذهبي(محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز) تحقيق شعيب الأرناؤوط ، محمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط9 1413هـ . موقع يعسوب .
11ـ سيرة ابن هشام ، السيرة النبوية ، (عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري) ، موقع الإسلام .
12ـ صحيح مسلم ، الجامع الصحيح ، (مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري) ، دار الجيل ، بيروت . موقع وزارة الأوقاف المصرية .
13ـ علم الأدب العربي ، دلالة الماهية وكتب الأصول ، محمد كريم الكواز ، مجلة فضاءات ، العدد4 سنة 2003 ، دار الأصالة والمعاصرة ، طرابلس ، ليبيا .
14ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ابن رشيق(أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني) . موقع الوراق .
15ـ القصّاص والمذكرين ، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي(ت 597هـ) تحقيق سوارتز ، دار المشرق ، بيروت 1971 .
16ـ قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ، الثعلبي(أحمد بن محمد النيسابوري) ، المكتبة الثقافية ، بيروت(د . ت) .
17ـ المستطرف في كل فن مستظرف ، الأبشيهي(محمد بن أحمد بن منصور) . موقع الوراق .
18ـ مسند الشاميين ، الطبراني(سليمان بن أحمد). موقع السنة .
19ـ معجم البلدان ، ياقوت الحموي(شهاب الدين عبد ربه الحموي) ، دار صادر ، بيروت 1375هـ ، 1956م . موقع الوراق .
20ـ المعجم الصغير ، الطبراني(سليمان بن أحمد) . موقع السنة .
21ـ المعجم الكبير ، الطبراني(سليمان بن أحمد). موقع ملتقى أهل الحديث .
22ـ مقدمة ابن الصلاح ، معرفة أنواع علم الحديث ابن الصلاح(عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري) . موقع الوراق .
23ـ من أساطير الأولين إلى قصص الأنبياء ، محمد كريم الكواز ، مؤسسة الانتشار العربي ، بيروت 2006 .
24ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ابن خلكان ، (أحمد بن محمد بن أبي بكر) ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت 1994 . موقع الوراق .